خلاصات تعليمية

جائزة حمدان بن راشد آل مكتوم
للأداء التعليمي المتميز

بلاد الأذكياء

أسرار نجاح الدول الأفضل في التعليم

العدد 3
أكتوبر 2017

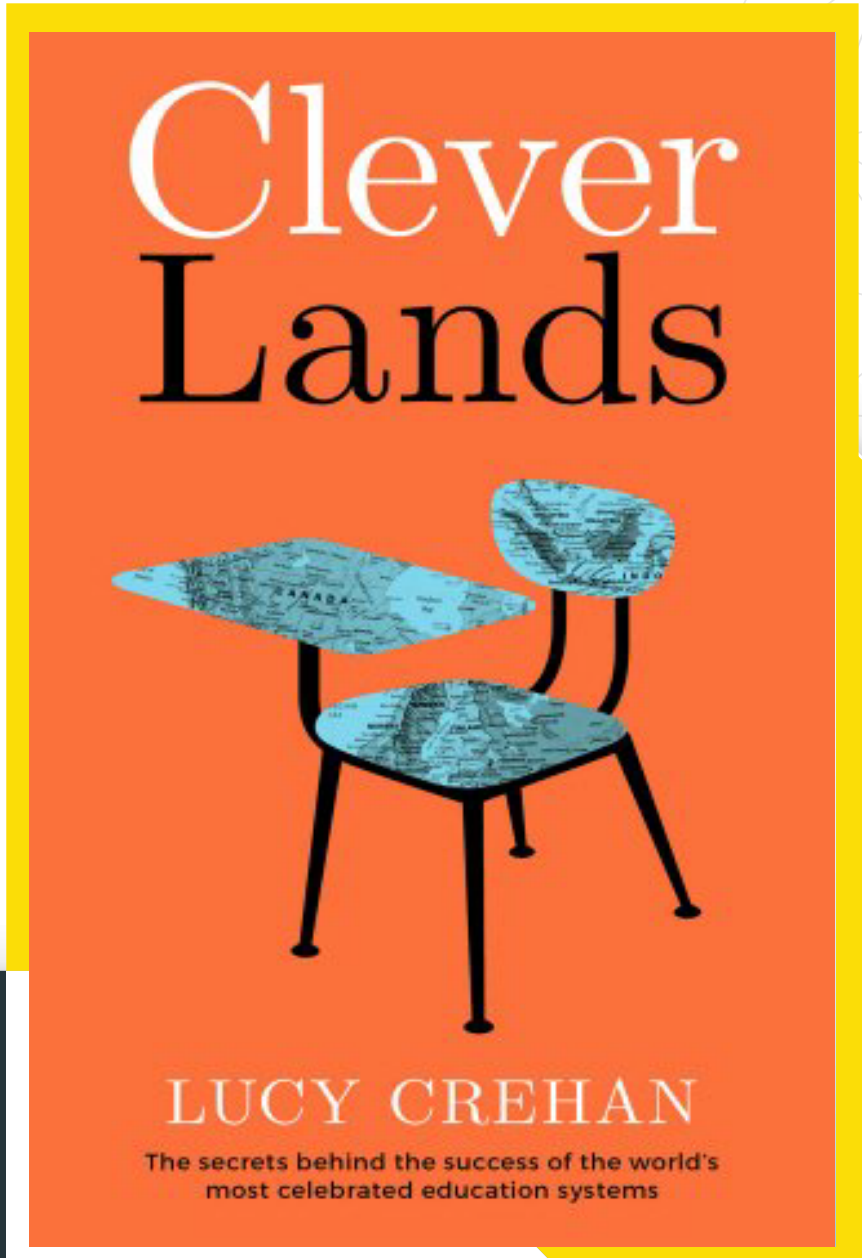

تأليف
لوسي كريهان

ما قَلَّ ودَّل

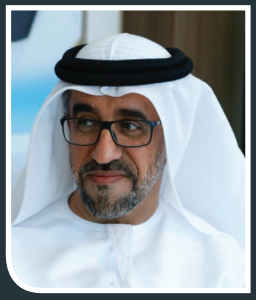

يسرُّنا في العدد الثالث من «خلاصات تعليميَّة» أن نقدِّم لكم كتاب الباحثة البريطانيَّة «لوسي كاريهان»، التي ستزور الإمارات قريباً في إطار جهودها لدراسة ومقارنة نظم التعليم المتقدِّمة حول العالم. في كتابها «بلاد الأذكياء» الذي طالبت مجلَّة «الإكونومست» وزراءَ التعليم بقراءته، تؤكِّدُ المؤلِّفة أنَّه ليس دليلاً إرشاديّاً، ولا يقدِّم وصفات جاهزةً وحلولاً معلَّبة، ولا يفرض توصيات جامدة حول الكيفيَّة التي ستمكِّن أيَّ دولة من بناء نظام تعليميٍّ فعَّال. ما لاحظناه بعد قراءة الكتاب هو أنَّ كلَّ دولة من الدول التي استكشفنا أسباب تميُّزها، انتهجت طريقها الخاص في التميُّز، فلم تقُم «كندا» بنسخ سياسات «فنلندا»، وليس هناك تشابه كبير بين استراتيجيَّات التعليم في الصين واليابان، على الرغم من تقاربهما الجغرافي، ومن تمتُّعهما بثاني وثالث أكبر اقتصاد في العالم. أمَّا التشابه الذي لمسناه في منظومة التعليم في الصين وسنغافورة، فيرجعُ إلى الثقافة الصينيَّة الغالبة على المجتمع السنغافوري، حيث يُشكِّل الصينيون 70٪ من السكَّان.

تتنافس دول العالم على الموارد الطبيعية والبشرية، وفي اقتناص حصصها من المواهب. وبإلقاء نظرة عميقة على تطوُّر الدول ومؤسَّساتها الإداريَّة، وعلى استراتيجيَّاتها في تخصيص الموارد، ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ الاستثمار في التعليم والبحث العلمي هو السبب الأول لتحقيق نتائج إيجابيَّة على المدى البعيد، حيث تبرز الفوارق في النتائج المتحقِّقة من التعليم بين المجتمعات بشكل تدريجي، وعبر مدد زمنيَّة تتراوح بين ثلاثة وأربعة عقود. تظهر في البداية بعض مؤشِّرات التقدُّم، لكنَّ السياسات الرشيدة لا تتحوَّل إلى نتائج في لمح البصر، بل تظهر على فترات ثمَّ تختفي، ودليل ذلك أنَّ دولاً مثل أستراليا وألمانيا حقَّقت نتائج قويَّة مع مطلع الألفيَّة ثمَّ تراجعت قليلاً، لكنَّ المؤشِّر الإيجابي للتقدُّم لا يلبث أن يعود إلى الصعود بعد ابتكار سياسات ذكيَّة من قبل الإدارة التنفيذيَّة لمنظومة التعليم.

لقد كان هناك اعتقادٌ راسخٌ بأنَّ التقدُّم الذي تُحرزه الدولُ في اختبارات التعليم يعود إلى الازدهار الاقتصادي بشكل عام، مع أنَّ سرَّ التفوُّق يكمن – بالدرجة الأولى – في التحسين المستمر في منظومة التعليم، ففي فنلندا مثلاً، يتنافسُ أفضلُ خرِّيجي الجامعات كلَّ عام على الالتحاق ببرامج التأهيل التربوي العليا ليصبحوا معلِّمين، ولكن يتمُّ رفض 90٪ من طلباتهم بسبب المنافسة الشديدة، وهذه النسبة تساوي تماماً نفس نسبة الطلبات التي ترفضها جامعة هارفارد.

وحيث لا توجد في العالم سياسةٌ تعليميَّةٌ مثاليَّةٌ وحيدةٌ يمكننا استيرادها وتعديلها ثمَّ تطبيقها، فإنَّ ما أردناه من عرض هذا الكتاب هو استكشاف كلِّ المنهجيَّات الذكيَّة، وفهم الاختلافات بينها، ومن هنا اختيار ما يُناسب مجتمعنا وثقافتنا وقيمنا، لتمكين أبنائنا من المنافسة الإيجابيَّة في مختلف الاختبارات والمحافل العالميَّة.

الدكتور/ جمال المهيري
الأمين العام

رحلة حول العالم

«أوروبا تُخيِّب آمال طلَّابها».

«الطلاب الأستراليون يتراجعون إلى مستوى أدنى ممَّا كانوا عليه قبل عقد من الزمن».

«الطلاب الفنلنديون يحتلُّون المرتبة الأولى في القراءة عالمياً».

تخرُجُ علينا وسائلُ الإعلام كل ثلاثة أعوام، بعناوين كبيرة على غرار المانشيتات الثلاثة السابقة، وهي تشير إلى نتائج اختبار دولي اسمه «PISA»، أي «البرنامج الدولي لتقييم الطلاب»، ويشملُ: القراءة، والرياضيَّات، والعلوم. كل دولة تشارك في هذا البرنامج تختار أفضل طلابها ممَّن تدور أعمارهم حول 15 عاماً لإعدادهم وتأهيلهم للمنافسة. بدأ البرنامج عام 2000 وشاركت فيه 43 دولة. وعلى مدار الخمسة عشر عاماً التالية، انضمَّ المزيد من الدول للمنافسة التي تُجرى تحت إشراف «منظَّمة التعاون الاقتصادي والتنمية».

فلماذا علينا أن نهتم باختبارات «البرنامج الدولي لتقييم الطلاب»؟

يأتي الاهتمام بمسابقات طلاب العالم من باب معرفة وفهم الممارسات التعليميَّة للبلدان المتفوقة تعليمياً. ونظراً إلى النقد الموجَّه لاختبارات البرنامج المُتهم بإهمال معايير أخرى لا بد من قياسها مثل: تقييم الطلاب في مجالات الآداب والفنون، وترسيخ مفهوم المواطنة لديهم، وتطوير قدراتهم الشخصيَّة والاجتماعيَّة، فقد كان من المهم أن نُسافر حول العالم لنراقب الطلاب في مدارسهم، ونستمع إلى معلِّميهم، ونبحثَ عن الأفكار المُبدعة، فنخرج بصورة أكثر شمولاً، ونضع خططاً واستراتيجيات للتنسيق بين كل تلك العناصر، إلى جانب التعرُّف على المؤشِّرات والربط بين الأرقام وتحليلها.

لإلقاء نظرة أكثر عمقاً وشمولاً، نستعرض في هذا الملخَّص الممارسات التعليميَّة في خمس من أكثر الدول والمدن تميُّزاً في مجال التعليم، وهي:

- «شنغهاي» و«سنغافورة» لأنَّهما تحقِّقان نتائج استثنائيَّة في اختبارات (PISA).
- «اليابان» لأنَّها دولة كبرى وغنيَّة ومتميِّزة في التعليم.
- «فنلندا» لأنَّها من الدول الغربيَّة القليلة التي استطاعت التفوُّق على دول شرق آسيا.
- «كندا» لأنَّها تحتلُّ مراتب متقدِّمة في اختبارات التقييم رغم تنوُّعها الثقافي وامتدادها الجغرافي.

فنلندا

شهد يوم 22 نوفمبر من عام 1963 ميلاد منظومة تعليميّة جديدة بـ«فنلندا»، فقد اعتمدت استراتيجيَّة «فنلندا» لتحقيق التميُّز في التعليم على نظام تعليمي ومدرسي شامل، ألغى تقييم الطلاب وتوزيعهم خلال مرحلة التعليم الأساسي المشترك. حلَّت هذه الاستراتيجيَّة محلَّ النظام ذي المستويين الذي يقسِّم الأطفال إلى تخصُّصات ومدارس مختلفة في سن العاشرة. لقد تم نشر شبكة المدارس كي يحظى التلاميذ بمدارس قريبة من منازلهم، أو توفِّر لهم الحكومة وسائل مواصلات مجَّانيَّة في المناطق الريفيَّة والبعيدة، وقد وفَّرت المدارس الشاملة مناهج متوازنة للجميع من دون تمييز في الاعتبارات المادية أو المستوى الدراسي.

بعد أن يُنهي الطالب مرحلة التعليم الأساسي خلال تسعة أعوام في المدارس الشاملة، يصبح من حقِّه حين يبلغ 16 عاماً من العمر أن يختار مواصلة تعليمه الثانوي عبر أحد المسارين الأكاديمي أو الفنِّي، ومدة كل منها ثلاثة أعوام تؤهِّل الطالب للالتحاق بالتعليم الجامعي. وهكذا تم إلغاء النظام القديم الذي كان يوزِّع الطلاب بين مدارس متميِّزة للمتفوِّقين، ومدارس أقل حظاً تجبر الطلاب على المسار المهني، دون مراعاة حقِّهم في تغيير المسار إن أرادوا. وقد رأى الفنلنديون أنَّه ليس من العدل إجبار الطالب على الاختيار وهو في العاشرة، ثم حرمانه من الحق في تعديل قراره إن أراد ذلك.

لقد تم تنفيذ منظومة التعليم الجديدة بهدوء ودون تسرُّع، فقد تزامن التغيير مع انخراط مئات المعلِّمين في عمليَّة اكتشاف أيِّ المنهجيَّات تؤتي ثمارها في إطار النظام التعليمي الجديد الذي يتلقَّى من خلاله التلاميذ ذوو القدرات والخلفيَّات المختلفة نفس المحتوى التعليمي، فكيف استطاعت «فنلندا» التفوُّق في اختبارات «PISA»؟

الحوافز

وفقاً لبحث أعدَّه العالمان «ريتشارد رايان» و«إدوارد ديسي»، فإنَّ العناصر الثلاثة التي تسهم في تحفيز الأفراد هي: الإتقان، والاستقلاليَّة، والعلاقات الوثيقة، وقد ابتكرت «فنلندا» نظاماً فريداً يدعم المتطلَّبات السيكولوجيَّة لتحفيز المعلِّمين.

1. الإتقان

تموِّل الحكومة الفنلنديَّة برنامج ماجستير تربوي مدَّته خمسة أعوام، فيكون على جميع المعلِّمين إعداد رسالة ماجستير في موضوع تربوي من اختيارهم بشرط أن يعكس أحدث العلوم التربويَّة المستقاة من أحدث الممارسات التربويَّة، ثم يخضعون لاختبار تحديد مستوى في مدرسة متخصِّصة في تدريب المعلِّمين.

2. العلاقات الوثيقة

يحظى المعلِّمون الفنلنديُّون بعلاقات إيجابيَّة فيما بينهم وبين أبناء المجتمع. ففي المدارس الابتدائيَّة، يلتقي المعلِّمون مرة كل أسبوع للتخطيط المشترك. وليس هناك مناصب شرفية ولا هياكل تنظيمية بين المعلمين باستثناء سُلطة مدير المدرسة، ويُعامل جميع مدرِّسي المادة العلميَّة الواحدة على قدم المساواة مهنيّاً. كما لا تُحدَّد رواتبهم استناداً إلى مستويات أدائهم مما قد يدفعهم للتنافس بعضهم مع بعض، فالعلاقات بين المعلِّمين لا تُعزِّز حوافزهم فحسب، بل وفاعليَّتهم أيضاً.

3. الاستقلاليَّة

ينعم المعلِّمون الفنلنديُّون بالاستقلاليَّة التامة لأنَّهم يحدِّدون الكيفيَّة التي يدرِّسون بها موضوعاتهم، كما يتمتَّعون بشيء من الحرية بشأن المحتوى الذي يدرِّسونه، فالمعلِّمون فعلاً محل ثقة الإدارة وواضعي السياسات التعليمية أيضاً، فهم نادراً ما يخضعون لعمليَّات تقييم تربويَّة، وليس هناك من يراقب أداءهم وسلوكيَّاتهم، فالمناهج التربويّة الدقيقة والمتماثلة، وخطط التدريس التي نراها في أنحاء فنلندا لا ترجع إلى فرض أساليب التدريس عليهم، بل هي من نتائج الرقابة على الجودة.

رقابة الجودة

«فنلندا» تثق في معلِّميها إلى الحدِّ الذي يجعلها تبدو وكأنَّها تستطيع التحكُّم في نواياهم وخبرتهم. فلديها العدد الكافي من الأشخاص الذين يتقدَّمون لشغل وظائف المعلِّمين إلى درجة تجعلها لا تقبل سوى المحفزين والشغوفين بتعليم الصغار، فهناك عدد كبير من الأشخاص الذين يتقدَّمون لشغل وظائف التدريس، لأنَّهم يدركون أنَّهم محل ثقة الإدارة التعليمية والمجتمع. تدير «فنلندا» أيضاً برامج تدريبيَّة في أعرق الجامعات، ممَّا يمكنها من التحكم في جودة تلك البرامج وفي مهارات خرِّيجيها، ولأنَّ برامج التدريب التربويَّة تُسَّق على المستوى المحلِّي، فإنَّ مخرجاتها تكون متشابهة، لا سيما في أساليب التدريس التي ينتهجها المعلِّمون. فعندما تؤكِّد التجارب أنَّ هناك طريقة محدَّدة لتدريس مفهوم بعينه تساعد الطلَّاب على فهمه بشكل أفضل، فإنَّ المعلِّمين يسترشدون بتلك الأبحاث لاختيار أساليب التدريس الأكثر فاعلية. وهناك سمة ثانية لنظام التعليم الفنلندي تسهم في اتِّساق نتائجه، وهي استخدام الكتب الدراسيَّة ذات الجودة الفائقة، فالمعلِّمون يستخدمون الكتب الدراسيَّة كمرجع يعتمدون عليه في تحضير دروس الرياضيَّات والعلوم. في حين أنَّ هذه الكتب وأنشطتها المقترحة تستند في إعدادها إلى دراسات تحدِّد أفضل السُّبل لمساعدة الطلاب على تعلُّم المهارات المنشودة. وما يميِّز «فنلندا» في هذا الجانب هو أنَّها لا تستخدم نظام الامتحانات الموحَّدة قبل أن يبلغ الطلَّاب 18 عاماً. ولذا فإنَّ معظم المؤسَّسات المسؤولة عن إعداد الكتب المدرسيَّة في «فنلندا» تتنافس في قدرتها على مساعدة الطلَّاب على الانخراط والفهم العميق للمناهج، مقارنةً بالوضع في «بريطانيا» مثلاً. وقد حثَّت الحكومة المؤسَّسات على التنافس في مجال إعداد وتحسين الكتب المدرسيَّة، ومدى صلاحية كل منها على جعل الطلاب يُحصِّلون أعلى الدرجات في تخصُّص ما.

الحضانة: العلم في الصغر

في «فنلندا»، لا يذهب الأطفال إلى المدارس دون السابعة من العمر. وقبل ذلك، يذهب جميع الأطفال إلى الحضانة لعام دراسي واحد، فكيف يستطيع الطالب الفنلندي ذو الخمسة عشر عاماً أن يتفوَّق في اختبارات القراءة والرياضيَّات والعلوم، مع أنَّه كان يلهو ويلعب لسبع سنوات؟

التركيز على اللعب في سنوات الطفولة المبكِّرة هو الاستراتيجيَّة التي اختارتها «فنلندا» بذكاء، استناداً إلى الأبحاث التي تُظهِر فوائد اللعب ودوره في النمو والمعرفة والنضج العاطفي. يساعد العام الدراسي الواحد الذي يقضيه الطفل في الحضانة على تأهيله في القراءة والرياضيَّات، ولكن هذا يحدث من خلال «الأنشطة التأهيليَّة» بدلاً من التدريس المباشر، فعندما يستمتع الأطفال بالقراءة ويتحفَّزون لها بعيداً عن المدرسة، تتزايد احتمالات إبداعهم فيها مقارنةً بالأطفال الذين يُكرَهون على القراءة منذ سن السادسة، وقبل الاستعداد النفسي لذلك. الحضانات الفنلنديَّة تحبِّب الصغار بالقراءة من خلال قصص الأطفال الخياليَّة والشعر والقوافي، فيتم تشجيع الأطفال على القراءة والكتابة من خلال اللعب والتجريب. أمَّا الأطفال الذين يواجهون صعوبات في القراءة بعد بلوغ السابعة، فيتم فحصهم وتشخيص حالاتهم للوقوف على صعوبات التعلُّم التي يواجهونها وإتاحة الفرصة للتدخُّل المبكِّر لعلاج الأمر.

ثانياً: اليابان

«اليابان» تعتبر التعليم أهم استراتيجيَّة حكوميَّة، إذ تُدرِّب الحكومة من خلالها المواطنين على المهارات المتنوِّعة التي تحتاجها الدولة الحديثة. يعرف كل قادة التعليم أنَّ «اليابان دولة قانون، وأوَّل ما يتعلمونه في المدرسة هو الالتزام بالنظام». حين سُئل الآباء عن أفضل وأسوأ سمة لنظام التعليم الياباني أشاروا إلى انخفاض معدَّل الحريَّات في المدارس باعتباره ميزةً وعيباً. في المدارس الابتدائيَّة، لا يرتدي الأطفال زيّاً موحداً، ومع بداية المرحلة الثانويَّة يضطرُّ الطلَّاب إلى الالتزام بتسريحة شعر محدَّدة، وبزي موحَّد يحمل علامات تجارية إجبارية. ويصف بعض الآباء الانتقال إلى المدارس الثانويَّة على أنَّه «تجنيد عكسري ودخول للجيش»، حيث يلقَّن الطلَّاب كيف يمشون في حصص التربية الرياضيَّة، ويتم تأديبهم حين يخرجون عن حركة المجموع، وباستثناء منطقة الشمال الأقصى، لا تمتلك المدارس اليابانيَّة أجهزة تبريد أو تدفئة. ويرى اليابانيون أنَّ نظام التربية الصارمة يساعد الطلَّاب على فهم القوانين والسلوكيَّات المتوقَّعة منهم، فلا يحتاجون إلى تدريبهم كثيراً وإخبارهم بما يجب أن يفعلوه عندما يدخلون الحياة العملية، كما نرى الطلاب الذين لم يتمكَّنوا من التكيُّف مع هذا السلوك يقبلون بهذه الثقافة الصارمة باعتبارها مرحلة لا مفرَّ منها يمرُّ بها الجميع.

المسؤوليَّة الجماعيَّة

الفكرة الأساسيَّة التي اتضحت استناداً إلى الأبحاث التي أُجريت في «اليابان» هي أهميَّة تعليم الأطفال التأقلم مع الجماعة، ففي يومهم الدراسي الأول، يُقسَّم الأطفال إلى مجموعات صغيرة تضم كلٌّ منها 4 أو 5 أطفال يتعاونون في كل شيء. يجلس الأطفال اليابانيُّون مع مجموعاتهم، ويمارسون أنشطتهم المدرسيَّة ويتناولون غداءهم وينظِّفون مدارسهم معاً، كما أنَّهم يحفَّزون أو يُعاقَبون كمجموعات وليس كأفراد. ويستمرُّ تأكيد أهميَّة الجماعة في المرحلة الثانويَّة، فيستمرُّ الطلَّاب بالعمل في مجموعات، غير أنَّ هويَّة الفصل تصبح أكثر أهميَّة في هذه المرحلة. يتولَّى الطلَّاب مسؤوليَّة تزيين الفصول، ووضع الملصقات التي تحمل الشعارات التي اتَّفقوا عليها. وتُعزَّز هويَّة الفصل بإجراء المنافسات بين الفصول التي تتنافس على المستوى الأكاديمي والرياضي والفني، مما يعزِّز الإحساس بالانتماء والمسؤوليَّة المشتركة، وهذا ما يسمَّى المسؤوليَّة الجماعيَّة أو المجتمعيَّة. ولا يركِّز المعلِّمون على سلوك الأطفال المشاكسين بشكل فردي، فإذا أساء طفل ما السلوك، تُصبح مسؤوليَّة طلَّاب الفصل أن يصحِّحوا ذلك ويقنعوه بالالتزام، وإلَّا فإنَّهم سيتعرَّضون للعقاب الجماعي.

فقدان الشخصية الفرديَّة

لا تقتصر مشكلة الهويَّة والمسؤوليَّة الجماعيَّة على العقاب فحسب، بل تمتدُّ آثارها إلى الفرديَّة والهويَّة الشخصيَّة، فالطلَّاب لا يرغبون في الخروج عن الإطار المرسوم لهم لأنَّه لا ينبغي عليهم فعل ذلك. يشعر الطلَّاب بالقرب بعضهم من بعض لأنَّهم يمرُّون بنفس الصعوبات معاً. ولكنَّهم أيضاً يشعرون بأنَّهم مقيَّدون، فلا يستطيعون أن يعبِّروا عن آرائهم، ولا أن يفكِّروا بشكل مختلف عن باقي مجموعاتهم. فإذا حاول أحدهم أن يكون مختلفاً أو تسبَّب في أي متاعب، يجري التصدِّي له، وإلَّا فإنَّ سلوكيَّاته ستؤثِّر في المجموعة بأسْرها وتتسبَّب في تنافر أفرادها.

يرى «هيدينوري آكيبا» أستاذ علم النفس التربوي في جامعة «أوساكا كيويكو» أنَّ التطابق والتشابه في «اليابان» قد غذَّيا رفض كل سلوك يختلف قليلاً عن الاتِّجاه العام. وبالإضافة إلى منهجيَّة المسؤوليَّة الجماعيَّة التي تتَّبعها المدارس، فإنَّ الطريقة التي يُقمع بها الطلَّاب تُعزى إلى ضغوط الأقران والتصرُّفات الشرسة. مثل هذه السلوكيَّات موجودة في جميع أنحاء العالم، ولكنَّها في «اليابان» تتَّخذ طابعاً خاصاً أسفر عن الثقافة الفريدة التي تسود الفصول المدرسية. فقد أظهرت الأبحاث أنَّ 80% من حالات التنمُّر والتصرُّفات الشرسة في مدارس «اليابان» هي حالات جماعيَّة، حيث يُمارس الطلَّاب جميعاً سلوكيَّات التنمُّر ضدَّ طالب واحد إذا ما أساء التصرُّف في نظر المجموع، وإذ تُحاول «اليابان» تشكيل شخصيَّات أبنائها كي يندمجوا بشكل إيجابي في المجتمع، فإنَّنا نعتقد أنَّها تبالغ في فعل ذلك كثيراً.

النجاح للجميع

يحرص النظام المدرسي الياباني في مرحلة التعليم الأساسي على أن يتلقى جميع الطلَّاب نفس القدر من التعليم، وأن لا يحصل أي طالب على مزايا استثنائيَّة ليست من حقِّه، وكي تَعتمد نتائج اختباراتها وما يعقب ذلك من التحاق بالمدارس الثانويَّة على المجهود الذي بذله الطالب في الدراسة. ومن سبل تحقيق ذلك نقل المعلِّمين من مدرسة إلى أخرى استناداً إلى تقييماتهم، كي لا تنفرد مدرسة واحدة بالمعلِّمين الأكْفَاء. يُعيِّن المعلِّمين المجلس التعليمي المحلي، وليس المدرسة نفسها، وينتقل كل منهم من مدرسة إلى أخرى كل عامين في البداية، ثم كل 4 إلى 6 أعوام بمجرَّد أن يستقروا ويتمرَّسوا. ورغم أنَّهم يتلقَّون ملاحظات وتعليقات حول أدائهم، فإنَّهم لا يطَّلعون على نتائجهم كي لا يعرفوا أسباب نقلهم إلى مدرسة بعينها. وانتقال المعلِّمين من مدرسة إلى أخرى يجعلهم يحافظون على فاعليَّتهم المهنيَّة، لأنَّ الطلَّاب يكونون قد تعاملوا مع معلِّمين آخرين، تصبح لديهم توقُّعات عالية وعلى المعلِّم تلبيتها، وقد تكون لديهم مشكلات سلوكيَّة يضطرُّ المعلِّم إلى معالجتها.

وهناك سبب آخر أدَّى إلى تلقِّي الأطفال العلم في إطار بيئات تعليميَّة متشابهة، وهو أنَّه لا يجري تقسيمهم داخل مدارسهم إلى فصول مختلفة وفقاً لقدراتهم – كما يحدث في «فنلندا». فالفصل الواحد يحتوي على كل القدرات، حيث يفترض نظام التعليم الياباني أنَّ الجميع متساوون فكريّاً، وأنَّ البيئة والسلوكيَّات الفرديَّة يؤدِّيان إلى اختلافات في القدرات الأكاديميَّة مع تقدُّم العمر.

ثالثاً: سنغافورة

يعتمد نظام التعليم في «سنغافورة» على مفهوم الجدارة، فهو يقوم على تحديد المواهب الكامنة لدى الصغار ومنح كلٍّ منهم الفرص التي تتوافق مع تلك المواهب. هذا النظام يفترض أنَّه من الممكن تحديد الموهبة بدقَّة في عمر العاشرة والثانية عشرة، حيث تشهد تلك الفترة أكبر قدر من توزيع التلاميذ واختيار المدارس المناسبة.

يلتحق التلاميذ بالمدارس حين يتمُّون السابعة، ليبدؤوا في الصف الأول الابتدائي. وداخل كل مدرسة، تتنوَّع القدرات داخل الفصول الدراسيَّة في هذه السن، غير أنَّ لكل مدرسة ابتدائيَّة مكانة مختلفة عن غيرها. أوَّل أولويَّة للقبول في أي مدرسة هي وجود أخ أو أخت يدرسان بها في الوقت الحالي، يليها أن يكون الأخ أو الأخت أو أحد الأبوين من خريجي هذه المدرسة. يساعد هذا على تماسك المجتمع، وهو يطمئن الوالدين اللذين حظيا بتعليم مميَّز إلى أن أبناءهما سينالون نفس الفرصة، فما أهميَّة اختيار المدرسة الابتدائيَّة التي سيلتحق بها الطفل؟ تكمن الأهمية في أنَّ للمجموع الذي ستحصل عليه في امتحان إتمام المرحلة الابتدائيَّة، الذي تؤِّديه في الثانية عشرة تأثيراً في مسار حياتك فيما بعد، فهو يحدِّد المدرسة التي ستلتحق بها، والاختبارات التي تستطيع أداءها، والوظيفة التي سينتهي بك المطاف فيها. وحتّى قبل أن يصل الطلَّاب إلى عامهم الثاني عشر، فإنهم يُقسَّمون إلى فصول مختلفة اعتماداً على قدراتهم المدرسيَّة.

وقد خضعت سلبيات تقسيم الطلَّاب على المدارس حسب مستواهم في هذه المرحلة العمريَّة للمناقشة داخل برلمان «سنغافورة»، ومن ثمَّ فإنَّ لدى الحكومة الآن برنامجاً تجريبياً يستطيع من خلاله الطلَّاب الذين عجزوا عن مواكبة المستوى الدراسي المتوقَّع منهم، أن يحصلوا على تدريب في المواد التي أجادوا فيها في اختبارات إتمام المرحلة الابتدائيَّة، بدلاً من أن يتسرَّبوا من المدارس كما كان يحدث من قبل. استحدثت هذه التغييرات بعد إدراك أن التقسيم المبكِّر للطلَّاب يعني أنَّ الذين يتأخَّرون في اللحاق بأقرانهم في التحصيل الدراسي، قد يفقدون الفرصة لتحقيق طموحاتهم ودراسة ما يختارون من تخصُّصات يجيدون فيها.

الضغوط العامَّة

توقُّعات الآباء في «سنغافورة» مرتفعة، وكذلك مشاركتهم، فحين يكون لدى الأبوين المال، فإنَّهم ينفقونه على الدروس الخصوصيَّة، ولأنَّ التعليم مجال للمنافسة، فغالباً ما يُستخدم المعلِّمون الذين يقدِّمون خدمات الدروس الخصوصيَّة لمساعدة الطالب على «النجاح»، وليس لاستيعاب المواد التي يواجه بها الطالب صعوبات، وحين تُقدَّم أفضل فرص الحياة المؤمَّنة ماديّاً لأوائل الطلَّاب فحسب، ويدفع آباء معظم الطلَّاب مصاريفَ الدروس الخصوصيَّة، فإنَّ الآباء الذين ينزعجون من هذا النموذج يكتسب أبناؤهم ميزة تنافسية، وهذا يعني أنَّه على العكس من البلدان التي تشكو من تضخُّم درجات طلَّابها، حيث يستطيع الطلاب خلال سنوات الدراسة أن يحصلوا على درجات مرتفعة، نجد في «سنغافورة» مشكلة عكسية، فالاختبارات تتزايد صعوبةً عاماً بعد آخر، فمثلاً نجد صعوبة اللغة المستخدمة في كتاب الصف الخامس الابتدائي أسهل عامين من صعوبة اختبارات الصف الخامس. وهذا التفاوت بين المحتوى التعليمي المقدَّم للطلَّاب وبين مستوى الاختبارات التي يخضعون لها، يُضيف المزيدَ من الضغوط على الآباء للإنفاق على الدروس الخصوصيَّة، كما يُضيف المزيدَ من الضغوط النفسيَّة على الطلاب الذين لا يجدون بديلاً سوى المذاكرة أكثر من أقرانهم، مما يشجِّع الحكومة على إعداد اختبارات صعبة لتمييز الطلَّاب المتفوِّقين، وهكذا.

ماذا بعد؟

تقول مؤلفة الكتاب: رغم أنَّ نظام التعليم في «سنغافورة» ليس عادلاً، إلا إنها تُبلي بلاءً حسناً لأنَّها تجعل نسبة كبيرة من طلَّابها تتجاوز المستويات الأساسيَّة المقبولة في القراءة، والرياضيَّات، والعلوم. وهناك القليل من الطلَّاب الذين يحقِّقون نتائج ضعيفة في اختبارات «PISA»، مقارنةً بالبلدان الأخرى، لذلك فإنَّ مدى تفوُّقك الدراسي مقارنةً بأقرانك من أبناء «سنغافورة» يعتمد إلى حدٍّ كبير على خلفيَّتك، وحتَّى الذين تأتي نتائجهم في ذيل قائمة نتائج الاختبارات، وفقاً لمعايير «سنغافورة»، فإنَّهم يتفوَّقون على نظرائهم في البلدان الأخرى، كما أنَّ من يواجهون صعوبات اجتماعيَّة وفقاً لمعايير «سنغافورة» يبقون أفضل حالاً من نظرائهم في البلدان الأخرى. وقد أطلقت «منظَّمة التعاون الاقتصادي والتنمية» على هؤلاء وصف «الطلَّاب المرنين»، أي الذين يتمتَّعون بقدرة على التكيُّف والأداء في المواقف الصعبة. فكيف يحدث ذلك؟ لا يهتمُّ نظام التعليم في «سنغافورة» بصعوبة جعل الطلاب الذين ينتمون إلى خلفيّات أقلّ حظاً، يؤدُّون بنفس كفاءة أقرانهم الأفضل حالاً، إلَّا أنَّه بمجرَّد أن يجري تقسيم الطلَّاب على المدارس وفقاً لمستوياتهم، يحرص نظام التعليم على التأكُّد من أنَّ جميع الطلَّاب يصلون إلى الحد الأدنى المعياري. ورغم أنَّ تقسيم الطلَّاب على مختلف المدارس يعتمد على نتائج اختبار أكاديمي، فإنَّ مسارات بعينها تُخصَّص لهؤلاء الذين يرسبون في الاختبارات، فيكون رد الفعل التالي هو تدريبهم على مهارات مهنيَّة مُفيدة فعليَّاً، وإدراك مواطن تميُّزهم المتعدِّدة، بدلاً من الاستمرار في إقحامهم بـ«برامج دراسيَّة لا طائل منها». لقد أدركت حكومة «سنغافورة» قبل أكثر من ربع قرن أنَّ «سنغافورة» ستكون أفقر إذا سعى الجميع إلى نيل المؤهِّلات الأكاديميَّة فحسب، من دون أن يحاولوا اكتساب مهارات يدويَّة وحرفيَّة.

رابعاً: شنغهاي

عاش الفيلسوف «كونفوشيوس» في القرن السادس قبل الميلاد، وكان يؤمن بأنَّ التعلُّم لا يميِّز أي شخص، ولا يُعتبر مبرِّراً للتمييز ضدِّ الآخرين، بل بإمكان الجميع أن يسعوا إلى المعرفة بغضِّ النظر عن قدراتهم الوراثيَّة وظروفهم الاجتماعيَّة، ولذا فإنَّ الحياة في كنف ثقافة كهذه تسهم في دعم عقليَّة النموِّ لدى الطفل الصيني، ورغم ذلك فالآسيويُّون يدركون أنَّ هناك اختلافات في القدرات الفطريَّة للأفراد، بيد أنَّهم لا يولُونها نفس القدر من الأهميَّة، لأنَّهم لا يعتقدون أنَّها تسهم في تحديد مستوى الأداء بالقدر الذي يسهم به بذل الجهد. المناهج الدراسية في «الصين»، تجعل الطلَّاب يؤدُّون المهام ذاتها، ورغم أنَّ بعضهم يتقدَّم عن الآخرين، فلا يُمنح أي طالب ورقة عمل سهلة، أو يُطلب منه العمل على مهمَّة منفصلة تحت إشراف

كونفوشيوس

المدرس المساعد. قد يشعر بعضهم بصعوبة الأمر، وقد يقدِّم لهم المعلِّمون المساعدة في أثناء الحصة الدراسيَّة وبعدها، فقط من أجل بلوغ مستوى زملائهم، وليس ليتميَّزوا عن غيرهم. فهُمْ مطالَبون بتحدِّيات ويُقدَّم لهم الدعم ليصبحوا قادرين على مواجهتها، ممَّا يدعَم فكرة أنَّ الجميع يستطيعون الإنجاز إذا بذلوا المجهود المناسب، كما يستخدم المعلِّمون المدح بشكل مختلف أيضاً، فهُمْ يطلبون من أكثر الطلَّاب اجتهاداً، وليس أكثرهم إنجازاً، أن يقفوا ليصفِّق لهم الجميع، وهذه هي أفضل منهجيَّة لدعم عقليَّة النموِّ والتحدُّث لدى الطفل. وهناك سببٌ آخر يلهمنا إلى أهمِّية بذل الجهد، وهو الآباء، فالآباء الصينيون يقلِّلون من أهميَّة نجاح أبنائهم لأنَّهم يؤمنون بأنَّ دورهم هو زيادة اجتهاد أبنائهم، فهم يخشون أنَّ التركيز على إنجازاتهم قد يسفر عن ضعف الحافز للتعلُّم، ولنفس الأسباب فإنَّ الآباء يركِّزون على إخفاقات أبنائهم. ومع ذلك فإنَّ الصينيين الصغار لا يعتبرون آباءهم سلبيِّين لأنَّهم يتدخَّلون عند الضرورة لتشجيعهم على التعلُّم من أخطائهم.

الطالب الصيني ومفارقة التعلُّم

التكرار جزءٌ لا يتجزَّأ من النظام التعليمي في «الصين»، فقد رأينا العديد من الحصص الدراسيَّة في المدارس الصينيَّة التي يردِّد فيها الطلَّابُ ما يقوله المعلِّم. في حين أنَّنا في الغرب نعتقد أنَّ التعليم بالتلقين أسلوب قديم ولا طائل منه، فهو لا يتيح للطلَّاب استيعاب المعلومات والاستفادة منها، غير أنَّ الطلَّاب الآسيويين الذين يتعلَّمون بالتلقين يتفوَّقون على الغربيِّين في اختبار «PISA»، وهو اختبار لحلِّ المشكلات، يتطلَّب الاستخدام الذكي للمعلومات، فكيف يحدث ذلك؟

يكمن الخطأ في افتراضنا أنَّ الحفظ والتكرار يؤدِّيان بالضرورة إلى التعلُّم بشكل سطحي، بيد أنَّ الباحثين يميِّزون بين نوعين من استراتيجيَّات التعلُّم تبدوان وكأنَّهما متماثلتان، وهما التلقين والتكرار، فالتلقين أسلوب ضحل وممل ولا ينطوي على محاولة للفهم والاستيعاب. أمَّا التعليم التكراري فيتضمَّن تعميق استيعابنا من خلال التكرار المدروس للمعلومات، وبشكل يجعلنا نولي اهتماماً بسمات ما نكرِّره. وعلى عكس التعليم بالتلقين، يمكن للتعليم بالتكرار أن يؤدِّي إلى الفهم العميق لمحتوى المادة الدراسيَّة، فحين يكرِّر الطلَّاب قصائد شعريَّة قديمة، فإنَّنا نفترض أنَّهم بعد أن يحفظوا كمّاً محدَّداً من المحتوى، سيصبحون على دراية بديهيَّة بكل حرف في اللغة الصينيَّة، وبكل معنى خفي له، ويحدث هذا بشكل تلقائي. وتنطوي مادة الرياضيَّات على قدر من الحفظ يشمل الجداول الزمنيَّة والحقائق والأرقام، وهذا يعني أنَّهم حين يحلُّون مسألة أكثر تعقيداً تتطلَّب هذه الحقائق، فإنَّ هذا الجزء من المشكلة يُصبحُ في متناولهم بكل يُسْر.

التفكير النقدي والإبداع

في عام 2011، قدَّمت الحكومة الصينيَّة منهجاً دراسيًّاً جديداً يؤكِّد أهميَّة دعم التفكير النقدي المستقل للطلَّاب. وهناك عدد متزايد من مدارس «شنغهاي» التي تدعم التفكير الإبداعي لدى طلَّابها عبر مناهجها الدراسيَّة، والتي تشارك المدارس في تصميمها. وتضيف بعض المدارس قدراً من عمليَّات الاستكشاف والتدريب إلى دروسها، لتشجِّع الطلَّاب على التعبير عن أفكارهم. وما زلنا بانتظار نتائج تجاربهم الجديدة قبل أن نحكم عليها، ولنرى ما إذا كانت ستثمرُ عن قدر أكبر من الإبداع أم لا.

خامساً: كندا

تتكوَّن «كندا» من 10 أقاليم، ومن أراضٍ شاسعة ذات كثافة سكانيَّة منخفضة. وكلُّ إقليم من أقاليمها مسؤول عن إدارة المنظومة التعليميَّة الخاصَّة به، ولذا نجد في «كندا» 13 نظاماً للتعليم، تشارك عشرة منها في اختبار «PISA». تستخدم هذه الأقاليم مناهج دراسيَّة متشابهة، وفيها اتِّحادات معلِّمين قويَّة، ويعتمد تدريب المعلِّمين فيها على نموذج موحَّد، وتستخدم طرق قياس وتقييم متشابهة، وفي ظل هذا النظام نجد عدد الطلاب الفاشلين أقلَّ بكثير من أقرانهم في الدول الأخرى، لا سيَّما في أساسيَّات القراءة، والرياضيَّات، والعلوم. ويلاحظ أيضاً عدم وجود علاقة مباشرة بين المستوى الاجتماعي للعائلة وبين نتائج اختبار «PISA». فما أسباب الأداء القوي لهؤلاء الطلاب الذين يعاني أقرانهم من الأداء الدراسي الضعيف؟

يعتقد قادة التعليم أنَّ دورهم يجب أن يتركَّز حول إشراك التلاميذ كي يشعروا بأنَّهم محلُّ تقدير من قِبل مدارسهم، وبأنَّهم عنصرٌ مؤثِّر في المجتمع، فكيف يفعلون ذلك؟

وجد الكنديون الحلَّ في منظومة من عدَّة طبقات. تتمثَّل الأولى في العلاقات التي يبنونها في المدارس حين يستمعون للأطفال ويسألونهم عن الأشياء والأعمال والدروس التي يحبونها. وتقدِّم المدارس الثانويَّة مجموعة مذهلة من الأنشطة الخارجيَّة كالتنس، والرسوم المتحرِّكة، والمناقشات، ورياضة الركبي، إلخ. ومن نتائج هذه الأنشطة أن الجميع يقومون بدورهم في المدرسة، فنجد مستشارين ومرشدين في كل مدرسة، ولا يقتصر دورهم على دعم الطلَّاب من ذوي الاحتياجات الخاصة فحسب، بل يتضمَّن دورهم الدردشة مع جميع الطلَّاب حول شؤون الساعة، والمواد الدراسيَّة التي يرغبون في اختيارها. يقول أحد المستشارين الكنديين: «جميع الطلَّاب يستحقُّون التعليم، ولكنَّهم لن يركزوا على مناهجهم ودروسهم من دون أن يشعروا بحبٍّ واهتمام كل من حولهم» هذه الملحوظة مهمَّة جداً، لأنَّ الذين يشعرون بأنَّ الدراسة الأكاديميَّة صعبة، والذين تتزايد احتمالات إخفاقهم، يكونون بحاجة أكثر إلى سبب يدفعهم إلى الاستمرار في الدراسة، والاجتهاد. وتهتم استراتيجيَّة التعليم الكنديَّة في تشجيعهم على الاندماج من خلال الشعور بأنَّهم جزءٌ من مجتمع المدرسة، عبر منظومة سَوِيَّة لأجمل العلاقات الإنسانيَّة.

وهناك سبب آخر يُسهم في تحفيز الطلَّاب، وهو المنهجيَّة الكنديَّة لتقسيم الطلَّاب إلى مجموعات، فلا يوجد توزيع على مدارس مختلفة، أو في مسارات مختلفة (أي توزيع للطلَّاب وفقاً لمستوياتهم الدراسيَّة)، أو تقسيم على فصول مختلفة، حتَّى يصل الطالب إلى الصفِّ التاسع، ويكون عمره بين 14 و15 عاماً. في بداية تلك المرحلة يبدأ الطالب فصلاً تمهيديًّاً للرياضيَّات المتقدِّمة، فيتوفَّر له الوقت الكافي للوقوف على مواطن قوَّته ومهاراته قبل وضعه في المسار المناسب.

معايير الأداء

وضعت مقاطعة «كولومبيا الجنوبيَّة» معايير أداء خاصَّة بها ليستخدمها المعلِّمون في الفصول. تصف تلك المعايير ما هو متوقَّع من التلاميذ في كل صف دراسي، فعلى سبيل المثال: تتضمَّن معاييرُ الكتابة الخاصّة بالصفِّ الثالث «الكتابة الأدبيَّة»، أي كتابة القصص والقصائد الشعريَّة. ويوضِّح الجدول التالي بعض مقاييس الوفاء بمعايير هذا النوع من الكتابة الإبداعية:

العناصر	لم تفِ بالتوقُّعات بعد	تفي بالحدِّ الأدنى من التوقُّعات	تفي تماماً بالتوقُّعات	تتجاوز التوقُّعات
لمحة	تكون الكتابة مقتضبة، أو مفكَّكة، أو غير منطقيَّة، ويعيبها تكرار الأخطاء الأساسيَّة.	تمثِّل الكتابة أحداثاً وأفكاراً مفكَّكة، مع بعض التفاصيل المشوبة بأخطاء متكرِّرة.	الكتابة كاملة، وسهلة الفهم، وتتضمَّن قصَّة أو قصيدة شعر ذات إيقاع سلس وشيِّق.	النص المكتوب عبارة عن قصَّة جذَّابة وموحية وتتَّسم بقدر من الأصالة.

نجد مثل تلك المعايير المصحوبة بأمثلة حقيقيَّة في كل موضوع ومستوى دراسي. وتختلف منهجيَّة «كندا» التي تعتمد على النتائج عن منهجيَّات التقييم في غيرها من البلدان، فمثلاً نجد معيار «سنغافورة» لاختبارات إتمام المرحلة الابتدائيَّة يقيس أداء الطلَّاب بمقارنة أداء كلٍّ منهم بالآخرين، وليس وفقاً لمعيار ثابت، ممَّا يجعلُ الطالبَ إذا كان أداؤه سيئاً، وكان أداء زملائه أسوأ، يحصل على درجة مرتفعة، أمَّا إذا كان أداؤه ممتازاً، وكان أداء زملائه أفضل، فإنَّه يحصل على درجة منخفضة، فالفيصل في تحديد درجاته هو مجموعه مقابل مجموع زملائه. أمَّا في «كندا» فمن الممكن أن يفي طلَّاب الصفِّ الرابع الابتدائي جميعهم بمعايير تلك المقاطعة ويجتازون الامتحانات وينجحون من دون أن يرسب أحد.

الدروس المستفادة

لم يكن هدف تأليف هذا الكتاب بعد زيارة العديد من دول العالم تقديم وصفة أو وضع دليل شامل إرشادي، أو فرض توصيات جامدة حول كيفيَّة بناء نظام تعليمي مثالي، ومع ذلك فإنَّ ما نأمله بعد قراءة الكتاب، واستكشاف المنهجيَّات والسياسات الناجحة في الدول التي تتمتَّع بأفضل منظومات التعليم حول العالم، هو أن نكون قد ساعدناكم على تحديد واختيار أفضل ما يُناسب بلادكم، ومجتمعكم، وخططكم، وأولاً وقبل كل شيء: طلابكم.

أهداف وطرق التعليم كثيرة، ومهما تعدَّدت وتفاوتت بين دولة وأخرى، فإنَّها لا يمكن أن تتجاهل: تنميةَ المواهب، وإلهام الشغف، وزيادة الوعي الاجتماعي، وترسيخ قيم المواطنة والعدالة والمساواة وقبول الآخر، بالإضافة إلى قيم الحب والخير والسلام. الطلَّاب متساوون في قدراتهم واستعدادهم ومواهبهم، وما يصنعُ الفرقَ هو نحن كقياديين ومنظِّرين ومخَطِّطين ومُعلِّمين ومنفِّذين. وعلينا، وأيضاً يُمكننا أن نكونَ أمَّةً ذكيَّةً، تتعلَّم من أجل أبنائها، وتُعلِّمهم، وتتَعلَّم منهم.

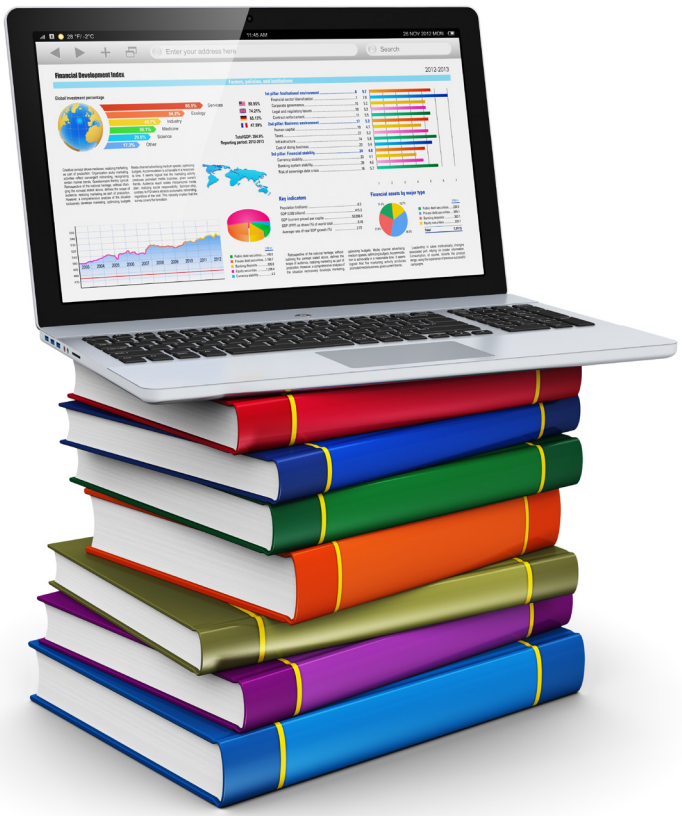

جائزة حمدان بن راشد آل مكتوم
للأداء التعليمي المتميز

رقم الهاتف: +971 45013333
رقم الفاكس: +971 45013300
صندوق البريد: 88088
البريد الإلكتروني: info@ha.ae